# محمود الوراق
# شاعر الزهد والحكمة

د. وليد قصاب
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية

إن محموداً الوراق ـ موضوع هذا البحث ـ شاعر متميز بين شعراء العصر العباسي الأول، وهو صاحب صوت متفرّد، فقد خَلَصَ شعره لمضمون نظيف، وغرض جاد، عرف بنقاء الكلمة، ونبل المقصد. قدَّر أمانة القول، وأحس بمسؤولية الشعر، فأخذ نفسه بكل ماهو خير هادف، حتى كان من الشعراء الملتزمين الذين يوظّفون الكلمة في خدمة العقيدة، ويغترفون من معين الدين وقيمه الكريمة الفاضلة. كان شعار الوراق: «قُلْ من الشعر ما يبقى لك ذكره، ويزول عنك إثمه»(١).

وهو شاعر مشهور مجيد، لافت للنظر بفضله وخلقه، وإخلاصه لعقيدته، وتدفق شاعريته، وقد أثر عنه شعر كثير، ولكن أحداً من القدماء لم يتوفر على جمعه، أو ضمه في ديوان(*)، ولكن شعر الوراق ـ بما فيه من الحكمة والموعظة والزهد ـ قد حظي عند أصحاب المختارات الشعرية، وفي دواوين المعاني. وكان مادة هامة ـ بشكل خاص ـ عند الذين اهتموا بإيراد أشعار ذات منزع ديني أو خلقي، كالحكمة، والمثل الصالح، والقول الشريف، والموعظة السائرة، والشاهد النافع، وغير ذلك من ضروب المعاني النبيلة التي أخذ الوراق فيها، وعرف بها.

ويحاول هذا البحث أن يتعرف على شاعر مجيد من شعراء تراثنا العربي الإسلامي، كانت العقيدة مادة شعره، والإسلام نبعه الصافي الذي شكل رؤيته الخاصة، ولكن ظلمه التاريخ الأدبي، فلم يعطه حقه من الدرس والتقديم، والإشادة والتنويه، ذلك هو محمود بن الحسن الوراق أحد شعراء الكلمة الهادفة في القرنين الثاني والثالث. ولعل هذا البحث ـ إذ يعرف بسيرته وشعره، ويدل على فضله وقدره ـ أن يرد إليه شيئاً من اعتباره، وأن يرفع عنه حيف التجاهل الأدبي الطويل.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق: ٢/٣١٩.

(*) قمنا بجمع شعر الوراق وتحقيقه وتوثيقه، ودفعناه إلى المطبعة منذ مدة، وقد أوشك أن يصدر. وكان عدنان راغب العبيدي قد نشر شعره في العراق سنة ١٩٦٩م، ولكنه أسقط الكثير منه، كما نسب إلى الوراق كثيراً ليس له، ووقع في أخطاء كثيرة بيناَّها في طبعتنا.

# القسم الأول
# سيرة الوراق وأخباره

محمود الوراق شاعر مشهور، وشعره ذائع متداول، وهو من شعراء القرن الثاني والثالث المرموقين، ولكن هذا كله لا يحمل الرواه على أن يسخوا علينا في إيراد أخباره؛ فقد شغلهم شعره أكثر مما شغلتهم حياته، وإن هي إلا نتف يسيرة من أخبار الوراق وأنبائه، لا تغني ولا تفي، وهي نفسها في كلِّ مصدر ينقلها واحد عن آخر.

ومن هذا اليسير الذي نعرفه عنه أنه (محمود بن الحسن) وقيل: الحسين(١). ولكن الأرجح الأسْيَرْ أنه ابن الحسن، ولا نعرف له أبعد من هذا النسب. وهو من الموالي، فقد ذكر أنه كان مولى لبني زهرة(٢). وكما نجهل نسبه وأسرته نجهل نشأته الأولى. نعرف أنه شاعر عراقي، وهو من بغداد، ولذلك علق به لقب (البغدادي)(٣) وقد انفرد العميدي صاحب الإبانة فذكر أنه كوفي. يقول: «محمود بن الحسين الوراق الكوفي»(٤) ولكن الأشهر أنه بغدادي، ولعله كان يأتي الكوفة كثيراً، ويغشى أماكنها مع بعض أصحابه كأبي الشبل الكوفي وغيره، فعلق به لقب الكوفي إن كان ما يقوله العميدي دقيقا. ومثلما كان يرتاد الكوفة كان يرتاد أماكن أخرى في العراق، ويعرف فيها أصدقاء. جاء في أخبار أبي تمام للصولي أن الوراق قال: «كنت جالسا بطرف الَحيْر ـ حَيرْ سُرَّ من رأى ـ ومعي جماعة لننظر إلى الخيل، فمرَّ بنا أبو تمام فجلس إلينا...»(٥).

وكان محمود يكنى أبا الحسن، ولا نعرف إن كان له حقاً ولد اسمه الحسن، أم أنها كنية أتته من اسم أبيه؛ إذ ليس بين أيدينا شيء عن هذا الولد.

وقد عرف بلقبين: أحدهما (الوراق) والآخر (النخّاس)(٦) فأما الوراق

---

(١) الإبانة : ٣٤، ٩٦، وذكر محققو زهر الآداب أن اسمه ورد في بعض النسخ (الحسين) انظر: ١/٩٧.

(٢) سمط اللآلي : ١/٣٢٨؛ نهاية الأرب : ٣/٨٨.

(٣) السابق، وسير أعلام النبلاء: ١١/٤٦١ وقد ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد : ١٣/٨٩.

(٤) الإبانة : ٢٣٤.

(٥) أخبار أبي تمام : ١٤٧.

(٦) انظر مرآة الزمان (حوادث ٢٢١ هـ)

فهو الناسخ بالأجرة(١)، ولعلها مهنة قد اشتغل بها أبو الحسن حتى لقب بها، ونسب إليها، ولكن ليس بين أيدينا شيء عن أخبار هذه المهنة وما كان من شأنه فيها. وأما لقبه الآخر (النخاس) فقد جاءه من قبل المهنة كذلك، فقد امتهن النِّخاسة. قال البغدادي: «ويقال: إنه كان نخّاسا يبيع الرقيق»(٢) وقال ابن الجوزي: «وكان نخّاساً»(٣) وجاء في مرآة الزمان: «كان نخّاسا يبيع الجواري والغلمان»(٤).

وقد ملكت يمينه عددا من الرقيق والجواري تبقى لدينا نتف يسيرة من أخباره معهم.

واشتهر من رقيقه جاريتان هما (سكن) و(نَشْوَى) فأما سكن فقد كانت حسناء جميلة أديبة ظريفة، وقد وصفها الحسن العلوي بقوله: «كانت سكن جارية محمود الوراق من أحسن خلق الله وجهاً وأكثرهم أدباً، وأطيبهم غناء، وكانت تقول الشعر فتأتي بالمعاني الجياد والألفاظ الحسان»(٥) وكان يحبها وتحبه، ويؤثرها وتؤثره كما تشهد على ذلك القصة التالية. روي أن محموداً «قد رقت حاله في بعض الدهر، واختلت اختلالاً شديدا، فقال لجاريته سكن: قد ترين ياسكن ما أنا فيه من فساد الحال، وصعوبة الزمان. وليس بي ـ وجلال الله ـ ما ألقاه في نفسي. ولكن ما أراه فيك، فإني أحب أن أراك بأنعم حال، وأخفض عيش، فإن آثرت أن أعرضك على البيع فعلتُ. ولعل الله ـ عز وجل ـ أن يخرجك من هذا الضيق إلى السعة، ومن هنا الفقر إلى الغنى. قالت الجارية: ذلك إليك، فعرضها، فتنافس الناس ورغبوا في اقتنائها. وكان أحد من بذل فيها أحد الطاهريين مائة ألف درهم، وأحضر المال، فلما رأى محمود تلك البِدَر سلس وانقاد ومال إلى البيع، وقال: يا سكن، البسي ثيابك واخرجي، فلبست ثيابها وخرجت على القوم كأنها البدر الطالع، وكان محمود ـ وهي

---

(١) شرح شواهد المغني للبغدادي: ٢/٣٨٧.
(٢) تاريخ بغداد : ١٣/٨٧.
(٣) أخبار الظراف: ١٣٥، وانظر الأنساب: ١٣/٣٠٦.
(٤) حوادث (٢٢١ هـ).
(٥) طبقات الشعراء لابن المعتز: ٣٦٧.

كذلك ـ معها، فقالت سكن وأذرت دمعها: يا محمود، هذا كان آخر أمري وأمرك أن اخترت علي مائة ألف درهم؟ قال محمود: فتجلسين على الفقر والخسف؟ قالت: نعم، أصبر أنا وتضجر أنت. فقال محمود: أشهدكم أنها حرة لوجه الله، وأني قد أصدقتها داري وهي ما أملك، وقد قامت علي بخمسين ألفاً. خذوا مالكم بارك الله لكم فيه. قال الطاهري: أما إذ فعلت ما فعلت فالمال لكما. والله لا رددته إلى ملكي، فأخذ محمود المال وعاش مع سكن بأغبط عيش»(١).

ولعله قبل هذا التاريخ ـ وقد علمت سكن بعزم الوراق على بيعها ـ حدث أن دست إلى المعتصم رقعة تسأله فيها أن يشتريها، فخرق المعتصم رقعتها، لأنه كان أراد مرة ابتياعها فأبت، فأنشأت قصيدة طويلة تعاتبه فيها، منها قولها:

ما للرسول أتاتي منك بالياسِ ... أحدثت بعد ودادٍ جفوة القاسي
فهبك ألزمتني ذنبا بظلمك لي ... فما دعاك إلى تخريق قرطاسي

ويبدو ـ على كلٍّ ـ أن حالة الوراق المالية قد تحسنت بسبب تلك المنحة الطاهرية السخية، فعاش مع سكن في أحسن حال إلى آخر حياته، وقد مات عنها، ثم اشتراها المعتصم من ميراثه. ويسوق معظم من ترجموا للوراق قصة شراء المعتصم لسكن، وما كان من شأنه وشأنها، ومن أمر جوابها المستحسن له. وخلاصة القصة أن الخليفة المعتصم طلب جارية لمحمود الوراق، وبذل في ثمنها سبعة آلاف دينار(٣)، فامتنع محمود من بيعها لأنه كان يهواها، فلما مات اشتريت من تركته بسبعمائة دينار، فلما دخلت عليه قال «كيف رأيت؟ تركتك حتى اشتريتك من سبعة آلاف بسبعمائة. قالت: أجل، إذا كان الخليفة ينتظر لشهواته المواريث فإن سبعين ديناراً كثيرة في ثمني فضلا على سبعمائة دينار، فأخجلته»(٤).

---

(١) طبقات الشعراء : ٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(٢) المستطرف في اخبار الجواري : ٣٢ ـ ٣٤.
(٣) وقيل عشرة ، انظر لطائف اللطف: ١٠١، والعقد : ٦/٤٠٥.
(٤) تاريخ بغداد: ١٣/٨٩، مرآة الزمان (حوادث ٢١١ هـ).

وقد ذكر ابن خلكان أن هذه الجارية التي اشتراها المعتصم من تركة الوراق هي (نشوى) وليس ذلك صحيحاً، فإن (نشوى) قد ماتت في حياة الوراق وقد رثاها بشعر.

وكانت نشوى كذلك أثيرة عنده، حبيبة إلى نفسه، ويبدو أنه قد اعتنى بها، فعلمها وخرجها، وقد أعطي فيها مالاً كثيراً فكان يأبى بيعها، ثم فجع بها، فجاءه من يعزيه ويعذله على ما كان يحمل إليه من ثمنها فأضاعه، فأنشأ الوراق يقول :

ومنتصح يكررُ ذكرَ نَشوى ... على عَمد ليبعث لي اكتئابا
فقلت ـ وعدَّ ما كانت تساوي ـ ... سيحسب ذاك من خلق الحسابا
عطيّته إذا أعطى سرورٌ ... وإن أخذ الذي أعطى أثابا(١)

ومن شعر الوراق في رثاء نشوى هذه قوله: (٢)

لعمري لئن غال صرف الزَّما ... نِ نشوى لقد غال نفساً حبيبهْ
ولكن علمي بما في الثَّوا ... ب عند المصيبةِ ينسي المصيبهْ

ومن الواضح أن علاقة الوراق بجواريه كانت علاقة طيبة، فيها هذا الجانب الإنساني النبيل، فهو ـ إذ تضيق به الحال ـ يعرض سكن للبيع لا زهداً فيها ولا رغبة عنها ولكن إشفاقا عليها أن تعيش عنده عيش خَسف وضنك، ثم يردها لما يرى من حبها وإخلاصها مع حاجته الماسَّة إلى المال، ويزيد على ذلك أن يحرِّرها ويصدقها داره. كما يوضح لنا ذلك أن الوراق كان في أول أمره ميسوراً، ثم رقت حالة واختلت في بعض الدهر.

ويبدو لنا ـ على كلٍّ ـ أن الرجل اشتغل بالنخاسة في أول حياته، ولعله في هذه المرحلة قد أخذ بحظّ من القصف واللهو، أو انصرف إلى بعض من عبث الشباب واستهتارهم. وقد يكون ما بين أيدينا من شعر قليل له في الحب وذكر

---

(١) بهجة المجالس: ٢/٣٥٨، تاريخ بغداد: ١٣/٨٨.
(٢) بهجة المجالس: ٢/٣٥٨، معجم الأدباء: ٦/١٣٥.

الشراب يعود إلى هذه المرحلة، كقوله :

اصطبح كأس شرابٍ ... واغتبق كأس تصابي
واجعل الأيام قسمًا ... بين عَتب وعِتاب
ووصال واهتجار ... وبعادٍ واقتراب
واجتناب في دُنوٍّ ... ودُنوٌّ في اجتنابِ
ورسول بكتاب ... وانتظارٍ لجوابِ
وقنوع من حبيب ... بالمواعيدِ الكِذابِ
ليس في الحب ولا الصبـ ... ـوة حظّ للشراب

وقوله :

أغار إذا دنت من فيك كأس ... على دُرٍّ يُقبلهُ زجاج(٢)

وقوله :

كتمت الهوى حتى إذا نطَقتْ به ... بوادر من دمعٍ تسيل على خَدِّي
وشاع الذي أضمرت من غيرِ منطقٍ ... كأن ضمير القلب يرشحُ من جلدي(٣)

وقوله :

لّما طوتكَ الأربعو ... نَ وآن للعمر انقراضُ
جادَ الشّبابُ بنفسهِ ... وَبدا بعارضك البياضُ
فمتى أطفت بلذةٍ ... فلعارض فيها اعتراضُ
سقياً لأيام مَضتْ ... وكأن أوجهها الرِّياضُ
أيام يدعونا الهوى ... وتقودنا الَحدقُ المِراضُ(٤)

---

(١) الموشى : ١٥٤.
(٢) المنصف في نقد الشعر : ٣٤١.
(٣) رغبة الأمل: ٦/١٠٢.
(٤) المختار من شعر بشار: ٢٧٦، الجمان في تشبيهات القرآن: ١١٠.

وقوله :

ألم تعلم ـ فداك أبي وأمّي ـ بأن الحبَّ من شيم الكرامِ(١)

ومن الواضح ـ وهذا جميع ما بين أيدينا من غزل الوراق وحديثه عن الصبوة والشراب ـ أنه غزل نظيف عف، وبعضه حديث عن الحب بمفهومه العام، وهو لا يصور ـ على أي وجه ـ انغماساً في اللهو، او انكباباً على المجون، أو شغفاً بمقارعه كؤوس الخمر كما بالغ في ذلك بعضهم(٢).

ويبدو كذلك أن صحبته لأبي الشبل الكوفي تعود إلى هذه الفترة، وقد يكون اختلف معه إلى بعض الحانات، فقد «كان أبو الشبل هذا من الطُيّاب، وله شعر مليح، وطبع رقيق، وكان منعكفاً على الشرب لا يفارقه ولا يوجد إلا سكران، وكان يتطرح في الديارات والحانات ومواطن اللهو، لا يغبها ولا يتأخر عنها»(٣). وقد نقل ابن المعتز عن أبي الشبل قوله: «صرت أنا ومحمود الوراق إلى قُطرَ بل، فدعونا الخمار وقلنا: هات لنا من عين الرَّاح العتيق التي قد أنضجها الهجير، فجاء بها، فقلنا: اجلس اشرب واسقنا. فنظر إلينا شزراً وقال: أنا مسلم ـ وكان يهودياً أسلم ـ أتأمرونني أن أشرب الخمر؟ قال أبو الشبل: فنظر إلى محمود الوراق وقال: قوم منهم الخمار مسلم متحرج، أترى لله فيهم حاجة؟ قلت: لا، لعمر الله»(٤) وقد أضاف الشابشتي للخبر السابق قوله:

«وكان بينه وبين محمود مودة، وكانا لا يفترقان»(٥).

وعلى أن الوراق ما لبث أن تجاوز هذه المرحلة سريعاً، واستقام على الطريقة. وسلك درب الزهادة والتقوى، فعرف بالفضل والنبل، والتقوى والصلاح. ووقف شعره كله على الحكمة والموعظة والكلمة الخيرة النظيفة.

---

(١) الموشى : ٧٤.
(٢) انظر ديوانه المطبوع : ١٧.
(٣) الديارات : ٥١.
(٤) طبقات الشعراء : ٣٨٠.
(٥) الديارات : ٥١.

ويبدو أن الوراق كان شاعراً مثقفاً مطلعاً، وكان يدخل ثمرات هذه الثقافة إلى شعره، ولذلك قال عنه الحصري القيرواني: «كان كثيراً ما ينقل أخبار الماضيين، وحكم المتقدمين، فيحّلي بها نظامه، ويزّين بها كلامه»(١).

## ولادته ووفاته :

لم تنص المصادر التي بين أيدينا على السنة التي ولد فيها الوراق، ولكنها نصت على سنة وفاته. وقد أوردت هذه المصادر صوراً متنوعة في الحديث عن هذه الوفاة. قال بعضهم: «مات في خلافة المعتصم»(٢) وقال بعض: «توفي في حدود المائتين والثلاثين»(٣) وقال آخرون: «توفي في خلافه المعتصم في حدود المائتين والثلاثين»(٤) وترجم له صاحب مرآة الزمان في حوداث سنة (٢٢١)(٥) وقد رأينا فيما تقدم أن الوراق توفي فعلاً في زمن الخليفة المعتصم وقد اشترى جاريته سكن من ورثته، وإذا علمنا أن المعتصم العباسي لم يدرك سنة ثلاثين، بل توفي سنه سبع عشرين ومائتين(٦) بدا لنا تحديد سنة وفاة الوراق بالمائتين والثلاثين غير دقيق. وإذا كان المقصود بحدود المائتين والثلاثين ما بين الإحدى والعشرين إلى أوائل السبع والعشرين فإن هذا يبدو مقبولاً. وعلى أن القطع بأن وفاته كانت سنة وعشرين ومائتين(٧) غير دقيق كذلك؛ لأن أياً من المصادر التي بين أيدينا لم ينص عليه، فهو ليس أكثر من ظن، ولكنه ظن يتفق مع كون الوراق مات في خلافة المعتصم.

ويفهم من كلام ابن عبد ربه(٨) أن الوراق مات في خلافة المتوكل، لأنه

---

(١) زهرا الآداب : ١/٩٨.
(٢) تاريخ بغداد : ١٣/٨٧، الأنساب: ١٣/٣٠٦.
(٣) طبقات الشعراء : ٣٦٨.
(٤) فوات الوفيات: ٤/٧٩، المنتحل: ٣٥٢، شرح شواهد المغني: ٢/٣٨٧.
(٥) ق ٢٩ (حوادث ٢٢١ هـ).
(٦) تاريخ الخلفاء: ٣٣٦، الأعلام: ٧/٣٥١.
(٧) كما في الأعلام: ٨/٤٢، وديوانه المطبوع: ١٠٦.
(٨) العقد : ٦/٤٠٤.

اشترى إحدى جواريه بعد وفاته. وهذا يعني أن وفاته كانت بعد اثنتين وثلاثين ومائتين، لأن المتوكل تولى الخلافة في هذا التاريخ(١)، وهو رأي ينفرد به، إذ أجمعت المصادر أن الذي اشترى جاريةالوراق بعد وفاته المعتصم لا المتوكل.

وإذا كانت المصادر قد ألمحت إلى تاريخ الوفاة فإنها سكتت عن الإشارة إلى تاريخ الولادة، ولكن شعر محمود الوراق قد يسعفنا في تلمس هذا التاريخ، أو الاقتراب من حدوده على الأقل؛ إذ يعكس هذا الشعر أن الرجل قد عمّر طويلاً. أدرك السبعين، بل لعله اقترب من الثمانين أو جاوزها إن صحَّ ما ورد في شعره. فهاهو زاهد في الدنيا، يشكو الشيب والكبر، ويصرح بأنه في الواحدة والسبعين :

مني السلام على الدنيا وبهجتها ... فقد نعاها إلي الشيب والكُبر
لم يبق لي لذَّة إلا التعجب من ... صرفِ الزمان وما يأتي به القدرُ
إحدى وسبعون لو مرَّت على حجر ... لكان من حكمه أن يُفلق الَحجرُ(٢)

وتحدَّث مرة عن الستين، وعن الشيب الذي جرّ ذيوله في مفرقيه:

أمن بعد ستين تبكي الطُّلولا ... وتندب رسمًا (وانياً) محيلا
وقد نجَّم الشيب في عارضيك ... وجر على (مفرقك) الذَّيولا(٣)

ولكنه ألمح في مرة ثالثة إلى الاقتراب من الثمانين

وما صاحب السبعين والعشر بعدها ... بأقرب ممن حَنّكته القوابلُ
ولكن آمالاً يؤملها الفتى ... وفيهن للرَّاجين حقٌ وباطلُ(٤)

واشتكى من أن هذا الكبر خلَّفه وحيداً :

وغادروك بلا أصلٍ ولا طرفٍ ... فما بقاؤك بعد الأصل والطَّرف(٥)

---

(١) انظر الاعلام (المتوكل).
(٢) بهجة المجالس : ٢/٢١٩.
(٣) بهجة المجالس: ٢/٢٢١، وكذا ورد ما بين القوسين مخلاً بالوزن ولعل صوابه «وانساً محيلاً) و«مفرقيك».
(٤) محاضرات الأدباء: ٢/٤٨٧.
(٥) السابق : ٢/٤٨٥.

لقد كان الـوراق من المعمـرين إذن، وإذا قـدرنـا لـه عمـراً بين السبعين والثمانين وقدرنا ـ كما ذكرنا قبل قليل ـ أنه مات ما بين إحدى وعشرين وسبع وعشرين ومائتين يكون التاريخ الذي ولد فيه الوراق ـ على وجه التقريب ـ ما بين مئة وأربعين ومئة وخمسين للهجرة، أي في حـوالي منتصف القـرن الثـاني الهجري. ويعزز هذا التقدير ما ورد في أخبـاره من أنـه التقى ببشـار بن بـرد الذي توفي سنة سبع وستين ومائة. جاء في وفيات الأعيان أن الوراق قال: «أتينا بشاراً فأذن لنا، فدخلنا والمائدة موضوعة بين يديه، فلم يدعنا إلى طعامـه، فلما أكل دعا بطست فكشف عن سوءته وبال، ثم حضرت الظهـر والعصر والمغـرب فلم يصل فدنونا منه وقلنا: أنت أستاذنا، فقد رأينا منك أشياء نكـرهـهـا..»(١) ولعل الوراق كان إذ ذاك شاباً في مقتبل العمر، وهو يقول لبشار: أنت أستاذنا.

امتدت حياة الوراق إذن ما بين متصف القرن الثاني إلى حوالي ثلث القرن الثالث الهجري، ثم مرض في أواخر حياته، ويبدو أنه قد اصيب بـالحمى، وقـد دخل عليه بعض أصدقائه يعوده، فأنشده:

فـإن تكُ حُـمى الغب شفَّـك وردُهـا ... فعُـقباك منها أن يطـولَ لك العُـمـر
وَقيناك لو يُـعطى الهوى فيك والُمنى ... لكانتْ بنـا الشكـوى وكـان لك الأجر(٢)

ولعله مات في في هذا المرض أو غيره. وقد روي أن آخر ما قاله في مرضه الذي مات فيه:

إن ظني بحسن عفـــوك يـــارب ... جميـــلٌ وأنت مـــالكُ أمـــري
صُنت سِّري عن القـرابـة والأهـــ ... ـل جميعاً، وأنت مـوضـعُ سِّري
ثقـةً بـالـذي لـديك من السـ ... ـر(٣) فلا تخُزني بـه يـوم نشْـري
يـــومَ هتك السُّتـــور عن حجب ... الغيب فـلا تهتكنَّ للنـاس ستري
لقّـني حُجَّـتي وإن لم يـكُنْ يـــا ... ربّ لي حُجَّة ولا وجـــه عـــذر(٤)

(١) وفيات الأعيان: ١/٤٢٦.
(٢) غرر الخصائص : ٤٤٦.
(٣) كذا في الأصل، ولعلها السّتر.
(٤) حسن الظن بالله: ٩٩، بهجة المجالس: ٢/٣٧٧

# القسم الثاني
# شعر الوراق

الـوراق من شعـراء العصر العبـاسي الأول، وهـــو عصر زاخـــر بعشرات الشعراء الفحول المجيدين ممن أدركهم أبو الحسن، أو عـاصرهم، أو التقى بهم. من أمثال صالح بن عبد القدوس، ومحمد بن كناسة، ومطيع بن إياس، وبشار بن برد، والحسين بن مطير، والسيد الحميري، وإبراهيم بن هرمة، وعبدالله بن المبارك.. وخلف الأحمر، ومروان بن أبي حفصة، وسلم الخاسر، والعباس بن الأحنف، وأبي الشمقمق، ومنصـور النمـري، وأشجـع السلمي، وأبي الشيص، وأبي نواس، ومحمد بن مناذر، وبكـر بن النطـاح، والفضـل الـرقـاشي، وأبـان اللاحقي، وأبي محمد اليزيدي، وصريع الغواني، وجعيفران الموسوس، وسعيـد بن وهب، ومحمد بن يسير، وأبي العتاهية، ومحمد بن حازم الباهلي، والعكـوك، وأبي يعقـوب الخـريمي، والعتـابي، وعـوف بن محلم الخـزاعي، وبشر الحـافي الـزاهـد، وإسحـاق بن خلف، وأبي تمام، وأبي الينبغي، وإسحـاق بن إبـراهيم الموصلي، وأبي الشبل، وعبد الصمد بن المعذّل، وماني المجنون، ودعبل الخزاعي، والحسين بن الضحاك، والبحتري، وكثير جداً غير هؤلاء.

ومن الواضح من إيراد هـذه العينّة من الشعـراء الـذين زخـر بهم عصر الوراق، ازدهار الحركة الأدبية في هذا العصر، وتعدد مشارب الشعر والشعـراء، وتلون اتجاهاتهم الفنية والفكريـة، فمنهم من مثـل اتجـاهـات المجـون واللهـو والزندقة، ومنهم من مثّل اتجاهـات الغـزل وفنـونـه المختلفـة، ومنهم شعـراء السياسة والدعوة العباسية، ومنهم شعراء الزهـد والحكمـة والمـوعظـة، ومنهم شعراء الشيعة، ومنهم شعـراء البرامكـة وغيرهم من الـوزراء والـولاة والقـواد، ومنهم من مثل فنون الشعر التقليدية من مديح وهجاء وفخر.. الخ.

ولكن الوراق مثل اتجاه الزهد في هذا العصر، وحمل لـواءه مـع غيره مِن الشعراء، وتميز به حتى صار علما فيه يشار إليه بالبنان، ثم مضى يكثر القول فيه، ويجند شعره له، مستلهما معاني الإسلام وقيمه النبيلة الرفيعة، فإذا هـو شاعر الحكمة المعبرة، والمثل السائر، والموعظة المؤثرة، والدعوة الصادقة إلى الله، والثورة على الفساد وعلى قيم الرذيلة والشر التي أخـذت تستشري في المجتمـع، وتحاول أن تغتال مُثله الـرفيعـة الخيرة التي دعـا إليهـا الإسـلام، وحض على التمسك بها.

عُرف الوراق إذن في هذا العصر بأنه شاعر الموعظة والحكمة والزهد. وهو شاعر متميز في هذا الفن، ويقترن اسمه ـ في العادة ـ بأسماء كبار الشعراء الذين اشتهروا بهذا الضرب من القول، من أمثال سابق البربري، وصالح بن عبدالقدوس، ومحمد بن كناسة، ومحمد بن يسير، وسعيد بن وهب، وأبي العتاهية وغيرهم. يقول ابن المعتز: «شعر محمود كثير، وأكثره حكم وأمثال ومواعظ وأدب، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبدالقدوس وسابق البربري»(١) ويذكر التيفاشي بعض ما انفرد به الشعراء: «كأبي نواس في الخمر، وابن المعتز في التشبيه، والصنوبري في صفات الربيع.. ومحمود الوراق في الحكم»(٢).

وشعر الوراق الذي بين أيدينا كله في هذا الفن ـ الحكمة والموعظة والزهد ـ إلا أبياتاً قليلة خرجت إلى غرض غيره، ويشك في نسبة بعضها إليه، وقد توقفنا عندها في القسم الأول ونحن نتحدث عن سيرته وأخباره.

وزهد الوراق ومواعظه التي يقدمها شعره فن أصيل حار. وهو يفصح عن تجربة عميقة، وخبرة ثرة بشؤون الحياة وأحوال الناس وأوضاعهم في عصره.وهو رجل صادق الإيمان، عميق التدين، متزن التفكير، مهذب السلوك. وهو داعية إصلاح وإرشاد، وصاحب مواقف نبيلة خيرة. إنه شاعر ملتزم يصدر عن تصور إسلامي صحيح فيما يقول.

**الزهد** : وهو غرض رئيسٌ في شعر الوراق. وكان مكثراً منه شأنه في ذلك شأن أبي العتاهية(٣). وقد ازدهر شعر الزهد في العصر العباسي وشكل تيارا كبيراً مثّل ردَّة الفعل أو المجابهة لتيارات المجون واللهو والزندقة التي انغمس فيها بعض من شعراء هذا العصر. وهو ظاهرة إسلامية خالصة تمثل التشرب العميق للجانب الوجداني الروحي من الإسلام. ومصدره الأساسي القرآن والسنة والنماذج القدوة من رعيل الصحابة والتابعين.

---

(١) طبقات الشعراء: ٢٦٨.

(٢) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس: ٤٠.

(٣) خلافاً لما قاله الدكتور مصطفى الشكعة من أن الوراق غير مكثر من قول الشعر في الزهد. انظر كتابة (الشعر والشعراء في العصر العباسي: ص ٢٢٢).

والوراق ـ شأن الزهاد ـ يذم الدنيا، ويدعو إلى عدم الاغترار بها، وأخذ الحذر منها، بل إلى إعلان الحرب عليها ومعاداتها:

ما أفضح الموتَ للدنيا وزينتِها ... جدّا وما أفضح الدُّنيا لأهليها
لا تَرجِعنّ على الدّنيا بلائمةٍ ... فعذرها لك بادٍ في مساويها
لم تُبق في غيبها شيئا لصاحبها ... إلا وقد بينته في معانيها
تفني البنين وتفني الكُلَّ دائبةً ... ونَستنيمُ إليها لا نعاديها(١)

وهو لا يفنأ يذكر بأن الحياة قصيرة قصيرة:

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ وكلما ... مَضى نفسٌ منها انتَقصتَ به جُزءا(٢)
اعلم بأنك نائمٌ ... فوق الفراش وأنت راحلْ(٣)

والحياة ليست بدار خلود، إنها دار انتقال، وكل ما يملكه الإنسان فيها عارية، والعارية ـ كما ورد في الحديث ـ مُستردة مؤدّاة:

فما هذي الحياةُ لنا بأهلٍ ... ولا دارُ الحياةِ لنا بدارِ
وما أولادُنا والأهل فيها ... ولا أموالنا إلا عوارِ
وأنفسنا إلى أجلٍ قريبٍ ... سيأخذها المُعِيرُ من المُعارِ(٤)

والسرور فيها ـ مهما طال ـ نهايته الموت:

إنّ عيشا إلى الممات مصيرهْ ... لحقيقٌ ألا يدومَ سرورُهْ
وسرورٌ يكون آخره المو ... تُ سواء قليله وكثيرُهْ(٥)

والموت نهاية لا مهرب منها، وحقيقة لا يمكن جحدها، ولا يملك أحد

---

(١) بهجة المجالس: ٢/٢٨٨.
(٢) السابق: ٢/٣٣٩.
(٣) السابق: ٢/٣٢٥.
(٤) المنازل والديار: ٢/٨٤.
(٥) بهجة المجالس: ٢/٣٢٧.

ردّها، وقد يتعلق المرضى بالطبيب يحسبون أنه يستطيع دفع شبحه عنهم، فتقع المفارقة العجيبة:

فمات الطبيبُ وعاش المريضُ  فأضحى إلى الناس يَنْعَى الطبيبا(١)

وعلى أن هذا الموت ـ في حقيقته ـ راحة للإنسان. إنه يعني نهاية الألم والمرض والنقص. ويلجأ الوراق ـ وهذه ظاهرة في شعره ـ إلى الأقيسة المنطقية، وإلى رسم المفارقات، فمن يحرص على البقاء يسعَ إلى الفناء، يقول:

يحب الفتى طولَ البقاء وإنّه  على ثقة أن البقاء فناءُ(٢)
إذا ما ازددت في عمري صُعوداً  تنقصه التزيُّدُ والصعودُ(٣)
أسرع في نقصِ امرىء تمامُهُ  تُدبر في إقبالِه أيّامه(٤)

ومن ثم يبدو الحرص على طول البقاء ضربا من الغفلة والسذاجة، فهذا الطول يبدع في الإنسان بدعاً :

تجرَّد أكثر جثمانه  وفرَّق ما كان منه جُمِع
ودلَّ المشيب على رأسه  وأعقب من بعد شيبٍ صلَعْ
وقوّس متنيه بعد اعتدال  وأثبت في الرِّجل منه الظَّلَعْ
فمن ذا يُسَّر بطول البقاء  إذا كان يُبْدع هذي البدعْ(٥)

وعلى أن الزهد في الدنيا والتزهيد فيها يتخذ عند الوراق ـ الذي يحرص كثيراً على استخدام المنطق وأقيسته العقلية ـ منحى إيجابياً، فهو ليس من قبيل

---

(١) الموشح : ٥٣٢.
(٢) بهجة المجالس: ٢/٢٤١.
(٣) سرقات المتنبي: ٣٩، المنصف: ٣٤٨.
(٤) الرسالة الموضحة: ١٠٩.
(٥) بهجة المجالس: ٢/٢٣١.

تظليم الصورة في عين المخاطب، ولكنه من باب التذكير بالآخرة ـ دار البقاء ـ والدعوة إلى العمل لها وعمارتها :

يا عامرَ الدُّنيا على شيبهِ ... فيك أعاجيبُ لمن يَعجبُ
ما عذر منْ يعمرُ بنيانُه ... وعُمْرُه مُستهدمٌ يُخْرَب(١)

ومن وجه التذكير بأن كل ما يبتنيه الإنسان في الدنيا ليس ملكاً له:

أيها الشيخُ كم تروم وتبني ... ليس منكَ الدُّنيا ولا أنت منها
لا تَرُومنَّها فأنت وإن كنـ ... ـتَ مقيما بها كَمنْ زالَ عنها(٢)

وفي ضوء المقدمات السابقة يبدو الحرص على الدنيا والتكالب عليها لوناً من الغفلة والذل :

مُكرمُ الدنيا مُهانٌ ... مستذل في القيامهْ
والذي هانت عليه ... فله ثمَّ كرامهْ(٣)

## الحكمة والموعظة :

تحتل الحكمة مكاناً بارزاً في شعر الوراق. وهي تفصح عن خبرة بالنفس البشرية، ومعرفة بها، وانسراب إلى أعماقها. كما تدل على أن الوراق قد أخذ بحظ غير يسير من الثقافة الفلسفية، وقد التقى ذلك على حس مرهف ومعرفة بطبائع الأشياء. وتتخذ الحكمة عنده أحيانا شكل التمهيد أو التقديم العقلي لموعظة أو فكرة يريد إبرازها، كقوله

ليس شيء مّما يدبِّره العـ ... ـقلُ إلا وفيه شيء يريبهْ
فأخو العقل ممسكٌ يتوقَّى ... ويخاف الدخول فيما يَعيبهْ
وأخو الجهل لا يُقَدِّر في الأمـ ... ـر وإن أشكلت عليه ضرُوبهْ
راكب ردْعه كحاطب ليلٍ ... يخطىء الأمر كله أو يُصيبهْ(٤)

---

(١) محاضرات الأدباء: ١/ ٥١٩.
(٢) بهجة المجالس : ٢/ ٢٩٤.
(٣) الزهد الكبير: ١٧٥، مختصر تاريخ دمشق: ٥/ ٢٠٤.
(٤) بهجة المجالس: ١/ ٥٤٥، وركب ردعه لم يردعه شيء فيمنعه عن وجهه، وحاطب الليل: المخلط، يصيب مرة ويخطىء مرة.

أو قوله في الدعوة إلى غض البصر :

مَن أطلق الطـرف اجتنى شهـوةً ... وحـارس الشهـوةِ غض البصْر
والطـرفُ للقلب لسـان فـإنْ ... أراد نطقـا فلْـيُـكِـرَّ النظـرْ
يُفهم بـالعين عن العـين مـا ... في القلب من مكنـون خـير وشر
يطـوي لسـان المـرء أخبـاره ... والطـرف لا يملك طيَّ الخبْر(١)

وتبدو الحكمة عنده أحيانا أخرى ذات طابع إنساني عام؛ لانها تتعامل مع أمور تتصل بدخائل النفس البشرية، كقوله :

لا تسـألن المـرءَ عما عنـده ... واستملِ مـا في قلبـه من قلبكـا
إن كـان بغضـا كـان عنـدك مثلُه ... أو كـان حبـا فـاز منك بحبكـا(٢)

أو قوله :

إن العيـون على القلـوب شـواهـدٌ ... فبغيضهـا لك بَـيِّـنٌ وحبيبهـا
وإذا تـلاحظت العيـون تفـاوضت ... وتحـدثت عماً تُـجنُّ قلـوبهـا
ينطقن والأفـواه صـامتـةٌ فما ... يخفى عليك بـريئها ومـريبهـا(٣)

وتبدو الحكمة عنده في أحيان ثالثة على شكل تشخيص لظواهر معينة لاحظها أو انطبعت في حسه ووجدانه، على نحو قوله:

والنـاسُ صنفـان في زمـانك ذا ... لَو غيَر هـذين رُمْـتَ لم تجـدِ
هـذا بخيـلٌ وعنـده سَعـةٌ ... وذا جـوادٌ بغير ذاتِ يـدِ(٤)

---

(١) بهجة المجالس: ٢/٢٧.
(٢) العقد: ٢/٢٦٣.
(٣) السابق : ٢/٢٦٢.
(٤) نزهة الأبصار: ٨٣.

وقولـــه :

ولم أرَ مثلَ الفقـر أوضـعَ للفتى ... ولم أرَ مثل المـال أرفـع للنـذْل
ولم أرَ عـزاً لا مـرىء كعشيرةٍ ... ولم أرَ ذلا مثلَ نـأي عن الأهـل
ولم أرَ من عـدم أضَّر على الفتى ... إذا عـاش بين النُّاس من عـدم العقل(١)

والحكمة والموعظة في شعر الوراق رديفان، وهما تردان ممتـزجتين، وقـد تأتي الحكمة ـ كما سبق أن أشرنا ـ تمهيداً للموعظة، كقوله:

القـولُ مـا صـدقـه الفعـلُ ... والفعـلُ مـا وكَّده العقـلُ
لا يثـبتُ الـفـرعُ إذا لم يـكنْ ... يُقلـه من تحتـه الأصـلُ
ليس لـربِّ البيت من بيتـه ... عـيشٌ إذا لم يَـصْلُحِ الأهـلُ(٢)

وأما ضروب المواعظ التي يقدمها شعر الوراق فهي كثيرة جداً، منها الديني، ومنها الاجتماعي، ومنها العقلي، يقول مثلاً واعظاً محذراً من الاغترار بزخرف الدنيا والركون إلى مباهجها.

هي الـدنيـا فـلا يغـرُرْك منهـا ... مخايـلُ تستفـزُّ ذوي العقـولِ
أقـلُّ قليلهـا يكفيك منهـا ... ولكنْ لستَ تقنـعُ بـالقليـل
تشيـد وتبتني في كـل يـوم ... وأنتَ على التجهُّزِ للـرحيـل
ومنْ هـذا على الأيـام تبقى ... مضـاربـه بمـدرجـةِ السيـول(٣)

## الشعر الاجتماعي :

يبرز في شعر الوراق جانب اجتماعي واضح؛ فقد اهتم الشاعر كثيراً

---

(١) بهجة المجالس: ١/٢٠٣.
(٢) نزهة الأبصار: ٢٨٧.
(٣) المحاسن والأضداد: ١٠١، المحاسن والمساوىء: ٢٦٣.

بإبراز عيوب مجتمعه، ووقف قسماً غير قليل من شعره على الحديث عن بعض مثالبه وعيوبه، وشخص بعض الأمراض وراح يسخر منها، ويدعو إلى حربها، وهو يبدو في هذا اللون من القول مصلحاً مربياً، وصاحب اتجاه فكري واضح. إنه يحرض على نشر الفضيلة، وحرب المنكر، فهو شعر إصلاحي، يروّج للقيم الفاضلة، ويؤمن بالكلمة المجندة الهادفة لخير المجتمع، إنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

وما أكثر الأمراض والعيوب الاجتماعية التي حاربها الوراق: كالظلم، والنفاق الاجتماعي، والبخل، والحسد، والكذب، والجشع، والكبر، والتكالب على الدنيا، والتهافت على السلطان، والسؤال، وضعف الإيمان، وقلة الثقة بالله.

وفي شعره بعض النماذج التي يمكن أن تعد من الشعر السياسي، انتقد فيها بعض الملوك والأمراء الذين يحتجبون عن الرعية ويغلقون أبوابهم دون الناس، يقول في احتجاب أمير:

لولا مفارقة الريبْ ما كنتَ ممن يحتجبْ(١)

ويقول في اعتزال الملوك واتخاذهم الحجب:

شادَ الملوكُ حصونهم وتحصنوا من كلِّ صاحب حاجةٍ أو راغبِ
غَالوا بأبواب الحديد لعزها وتنوَّقوا في قبحِ وجهِ الحاجبِ(٢)

ويقول في جور القضاة :

كنا نفرُّ من الولا ة الجائرين إلى القضاةِ
فالآن نحن نفر من جور القضاة إلى الولاة(٣)

ويقول في تصوير وجوه من النفاق الاجتماعي يمثلها بعض من يظهرون التدين أمام الناس وهم يطوون في حقيقتهم جشعاً مادياً وتكالباً على المال:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٧٠.
(٢) رسائل الجاحظ: ٢/ ٧٤، عيون الأخبار: ٣/ ١٨٧
(٣) التمثيل والمحاضرة: ١٩٣، نزهة النفوس والأبدان: ٣/ ٢٨٧.

أظهـــروا للنـــاس نسكـــاً وعـلى المـنـقـــــوش داروا
ولـــه صـــامـــوا وصَلـــوا ولـــــــــه حـجُّوا وزاروا
لـــو غـــدا فـــوق الثُّريـــا ولهم ريشٌ لـطـــــارُوا(١)

ويقـول عن المنـافقين المتمسحين بـأعتـاب السلطـان، المشترين دنيـاهم بآخرتهم من أجل التزلف إليه وإرضائه:

ركبـــوا المـــراكب واغتـــدوا زُمـــراً إلى بـــاب الخليفـــهْ
وصَلـــوا البكـــور إلى الـــرَّوا ح ليبلُغـــوا الـــرُّتب الشريفـــهْ
بـاعـوا الأمـانـــة بـالخيـا نـةِ واشتروا بـالأمن جيفـهْ(٢)

وفي القسم الآخر هذا من الشعر الاجتماعي الإصلاحي نجد الوراق يحض على مكارم الأخلاق ويدعو إلى التمسك بها، ويروج لكل قيمة نظيفة فاضلة، كالتقوى، والإيمان بقضاء الله وقدره، والصبر، والقناعة، والصدق والعفة، وغض البصر، والبشر، والطلاقة، والجود، والعلم، والتسامح، وعمل الخير، والحرص على الذكر الحسن، والشكر لله تعالى، والتوبة والاستغفار، والحث على الصداقة واحترام حقوقها، والمشورة، وغير ذلك من الفضائل الحميدة.

يقول مثلاً في الصدق :

الصـــدقُ حلـــوٌ وهـــو المـــرُّ والـصـــــــدق لا يـتركُه الحُرُّ
جـــوهـــرة الصـــدق لها جـــوهـــرٌ يحسـدُهـا الـيـاقـوتُ والـدُّرُّ(٣)

ويقول بأسلوب فلسفي داعيا إلى ترك المعصية والإقلاع عنها:

عُمـــــرك قـــــد أفنيتَـه تحتمـي فيـــه من البـــارد والحـــارِ
وكـــــان أولى بـك أن تحـتـمـي من المعـاصي خشيـــة النـــار(٤)

---

(١) العقد: ٢١٦/٣، الكشكول: ٢١٦/٢.
(٢) جامع بيان العلم: ٢٠١/١.
(٣) احسن ما سمعت: ١٣١.
(٤) محاضرات الأدباء : ٤٠٧/٢.

ويدعو إلى التسليم بقضاء الله وقدره، والصبر على نوائب الدّهر :

أ إنْ فـــاتَ مـــا كنت أمـلْتَـه جـزعتَ ومـاذا يـردُّ عليك الَجزَعْ
ففـوِّضْ إلى اللـهِ كُلَّ الأمـورِ فليس يكـونُ سـوى مـا صَنَعْ
ولا يخَدعنك صرفُ الـزمـانِ فـإنّ الـزمـان كثير الُخدَعْ(١)

ويدعو إلى التسامح، والعفو عند المقدرة، عاكسا روحاً إنسانية نبيلة، وصادراً عن خلق كريم، كقوله :

إني شكـوت لظـالمي ظلمي وغفـرت ذاك لـه على علمي
ورأيتـه أسـدى إلَيّ يـداً لمـا أبـان بجهلـه حلمي
مـازال يظلمني وأرحمه حتى بكيتُ لـه من الظلمِ(٢)

وقوله :

سألزم نفسي الصّفح عن كل مذنبٍ وإن كثرتْ منـه علَيّ الجرائم(٣)

ومن الواضح ـ من خلال بعض النماذج اليسيرة التي عرضناها ـ أن الوراق فيما ينهى عنه أو يروِّج له من قيم، يصدر عن التصور الإسلامي للأخلاق، فهو شاعر مؤمن متمسك بأهداب الدين، معتصم بمثله وتعاليه، يزن الأمور جميعا بمعيار الإسلام، فما اتفق معه فهو الحق، وما تنكب جادته فهو الباطل.

وهذا الشعر الاجتماعي الإصلاحي في جانبيه معاً: إبراز العيوب، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، كثيرا جداً عند الوراق. ولعله أبرز مافي شعره. وقد نال حظوة بالغة عند الفقهاء والمحدثين وأصحاب كتب الأخلاق والمواعظ، فلا يكاد كتاب من هذه الكتب يخلو من نماذج له.

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٣٦٤.
(٢) الكامل: ٢/ ٥، الإشراف: ق ١٦.
(٣) بهجة المجالس: ١/ ٦٠٤.

## المـــال :

وفي هذا الضرب من الشعر الاجتماعي نجد الوراق قد أكثر الحديث عن المال كثرة لافتة للنظر. وتوقف طويلاً عند ما يحدثه من خلل في العلاقات الاجتماعية، وفي القيم الفكرية. وكانت نظرته إليه ـ على وجه العموم ـ تتفق مع زهده، فهو يذم الجشع والتكالب على الدنيا، ويرى أن طالب الدنيا عبد ذليل مشغول لا يرتاح ولا يهدأ، يقول:

كفلتُ لطالب الدُنيا بهمٍّ ... طويلٍ لا يؤول إلى انقطاعِ
وذلٍّ في الحياة بغير عزٍ ... وفقرٍ لا يدلُّ على اتساعِ
وشغلٍ ليس يعقبه فراغٌ ... وسعيٍ دائم معْ كل ساعِ
وحرصٍ لا يزال عليه عبداً ... وعبدالحرص ليس بذي ارتفاع(١)

ويهاجم الحرص طويلاً، ويسدد إلى صاحبه سهام الكراهية، فيقول:

لا تحمدن أخاً حرصٍ على سعةٍ ... وانظر إليه بعينِ الماقت القالي
إن الحريص لمشغولٌ بشقوته ... عن السرور بما يحوي من المال(٢)

وهو يدعو الغني إلى إنفاق ماله في حياته، وأن يتمتع به وهو حي، فلا خير أن يدعه لورثته الذين سينسونه بعد حين، ويحرم نفسه من الطيبات، يقول:

تمتع بمالكِ قبل المماتِ ... وإلا فلا مال إنْ أنتَ مُتَّا
شقيت به ثمَّ خلفته ... لغيرك بعداً وسحقاً ومقتا
فجادوا عليك بزور البكا ... وجدت عليهم بما قد جمعتا
وأوهبتهم كُلَّ ما في يديكَ ... وخلوك رهنا بما قد كسبتا(٣)

ويقول في موضع آخر

أبقيت مالك ميراثا لوارثهِ ... يا ليت شعري ما أبقى لك المالُ

---

(١) بهجة المجالس: ٢/٢٩٧.
(٢) بهجة المجالس: ١/١٥٣، ذم الدنيا: ٦٢.
(٣) لباب الألباب: ١٢٢، أدب الدنيا والدين: ٢٢٠.

القــومُ بعـــدك في حـــالٍ تسرهم فكيف بعـــدهم دارت بك الحـــالُ
ملـــوا البكـــاء فما يبكيك من أحـــدٍ واستحكم القيـــل في الميراث والقـــالُ
مـــالتْ بهم عنك دنيـــا أقبلت لهمُ وأدبـرت عنك والأيـــام أحـــوال(١)

ويذم سؤال الناس، ويجعله الموت الحقيقي :

لا تحسبنَّ المـــوت مـــوتَ البلى فـإنما الموتُ سؤال الـرجـالْ(٢)

وإذا سأل الإنسان فليسأل الله فإن خزائنه لا تنفد :

واسترزق اللـــه ممـــا في خـــزائنـــهِ فـإنّ ذلك بين الكـافِ والنـونِ(٣)

ويدعو إلى القناعة، ويستخدم ـ على عادته ـ الأقيسة المنطقية ليقرر هـذه المفارقـة، وهي أن القَـنُوع هـو الغني الحقيقي، وأن الجشـع فقير وإن كـان ذا مال:

إنّ القنـــاعـــة مـــا علمت غنىً والحرصُ يـورثُ ذا الغنى فقـرا(٤)

ويقول مستخدماً القياس السابق نفسه :

مَنْ كـــان ذا مـــال كثيرٍ ولم يقنـــع فـــذاك المـــوسُر المُعسُر
وكـــلُّ من كـــان قَـنُـوعـــاً وإنْ كـــان مُـقِـلّاً فهـــو المُكثـــرُ
الفقـــرُ في النفسِ وفيهـــا الغنى وفي غنى النفس الـغـنـى الأكـبُر(٥)

ومن الواضح أن الوراق يطالعنا بفكره طريفـة عن القنـاعـة؛ فـإذا كـان المألوف أن يُـتَحَدَّث عنها على أنها ثروة من لا ثروة لـه، فـإنهـا عنـده ضرورة للموسر والمعسر على حد سواء، وهي الثروة الحقيقة، فهي مـال من لا مـال لـه، ولكنها في الوقت نفسه الغنى الحقيقي لمن عنده مال.

---

(١) بهجة المجالس: ٢/٣٢٣، الزهرة: ٥٥٩.
(٢) بهجة المجالس: ١/١٧٥.
(٣) أحسن ما سمعت: ١٧.
(٤) بهجة المجالس: ٢/٣١١.
(٥) العقد: ٣/٢٠٧، بهجة المجالس: ٢/٣١٥.

وهو يمدح الفقر ويحسنّه، ويفضلّه على الغنى مستخدما كعادته ضربا من الأدلة العقلية، كقوله :

يا عائب الفقر ألا تزدجرْ ... عيب الغنى أكثر لو تَعْتَبِر
من شرف الفقر ومن فضله ... على الغنى إن صحَّ منك النظرْ
أنك تعصي الله تبغي الغنى ... ولست تعصي الله كي تفتقر(١)

ولكنه ـ على هذا ـ لا ينسى أثر المال في المجتمع، ودوره في تحديد منازل الناس وأقدارهم، ولا سيما في عصر اختلت فيه المعايير والقيم، وأصبح المال هو القيمة الكبرى التي ترفع وتخفض، وتعزّ وتذلّ. إن الوراق يصور هذا الخلل الاجتماعي أروع تصوير في قوله:

أرى دهرنا فيه عجائبُ جمةٌ ... إذا استعرضتْ بالعقل ضل لها العقل
أرى كلَّ ذي مال يسود بماله ... وإن كان لا أصل هناك ولا فصلُ
وآخر منسوباً إلى الرأي خاملاً ... وأنوك مخبولا له الجاه والنبلُ
فلا ذا بفضل الرأي أدرك بلغةً ... ولم أر هذا ضره النوكُ والجهلُ
وما الفضل في هذا الزمانِ لأهله ... ولكنّ ذا المال الكثير له الفضلُ
فشرف ذوي الأموال حيث لقيتَهمْ ... فقولهمُ قولٌ وفعلهمُ فعل(٢)

ويصور هذا الارتكاس كذلك في قوله:

ولم أر مثل الفقر أوضعَ للفتى ... ولم أر مثل المالِ أرفع للنذل(٣)

## الشباب والشيب :

أكثر الوراق من الحديث عن الشباب والشيب، ويعد هذا غرضا رئيساً متميزاً في شعره، فقد خلصت له مقطوعات كثيرة. وهو ـ على عادة الشعراء ـ

---

(١) عيون الأخبار: ١/٢٤٩.
(٢) بهجة المجالس: ١/٢٠٤، العقد: ٣/٣٠.
(٣) بهجة المجالس: ١/٢٠٣.

يبكي الشباب بحرارة، ويأسف لذهابه، ولا يرى شيئا يعوضه، يقول:

أيها النادب الشباب الذي قد ... كنتَ تجفوه مرةً وتعقه
لو بكيت الشبابَ عُمر الليالي ... لم تكنْ باكياً بما يستحقه(١)

والشباب يعني الهوى واللهو، على حين يعني الشيب الكف عن ذلك كله:

لا يحسنُ النسك والشبابُ ... ولا البطالات والخضابُ
كل نعيمٍ وكلُّ عيشٍ ... قبل الثلاثين يُستطابُ(٢)

والشيب جسر الموت ونذيره :

ولكن هذا الشيب للموت رائدٌ ... يخبرنا عنه بقربِ مزارِهِ(٣)

فوجب أن يكون نزوله واعظاً يحمل الإنسان على اغتنام ما تبقى من عمره في العمل الصالح، يقول :

اغتنم غفلة المنية واعلمْ ... أنما الشيب للمنية جَسُر(٤)

وعلى أنه نزيل ممقوت، ولذلك وجب علاجه وإخفاؤه بشتى السبل. يقول الوراق :

إذا ما الشيبُ جار على الشبابِ ... فعاجله وغالط في الحسابِ
وقُلْ لا مرحباً بك من نزيلٍ ... وعَذبْه بأنواع العذابِ
بنتفٍ أو بقصٍّ كلَّ يومٍ ... وأحيانا بمكروهِ الخضاب(٥)

وقد كثر حديث الوراق عن الخضاب علاجاً للشيب. ولكن هذا الخضاب ـ وإن أخفى الشيب إلى زمن ـ مصيره إلى افتضاح، ومآل المخضوب إلى نُصول :

---

(١) بهجة المجالس ٢/٢٣٥.
(٢) ديوان المعاني: ٢/١٥٣، بطل: هزل.
(٣) معجم الأدباء: ٣/١٩٤ (ط مر جليوت).
(٤) الكامل: ٢/١٧٥، شرح شواهد المغني للبغدادي: ٢/٢٨٣.
(٥) بهجة المجالس: ٢/٢١٢.

يـــا خـــاضبَ الشيبِ الـــذي ... في كـــلِّ آونـــةٍ يـعـــودُ
إن النـصـــــول إذا بـــــدا ... فكـــأنـــه شيبٌ جـديـــدُ(١)

ومن ثم يبدو الشيب قدراً لا سبيل إلى دفعه، وما الاحتيال عليه بالخضاب أو النتف أو القص أو غير ذلك إلا ضرب من العبث، يقول الوراق:

وذي حيلـةٍ في الشيب ظـلَّ يحوطُه ... فيخضبـه طـوراً وطـوراً ينتِّـفُ
ومـا لطفتْ للشيب حيلـة عـالِم ... على الدهرِ إلا حيلةُ الشيبِ ألطفُ(٢)

ولذلك نجد الوراق يستسلم له مكرهاً، ويخلي أمامه السبيل، فيقول:

الشيب مـا ليستْ لـه حيلـةٌ ... أعيـــانَي الشيبُ فخلَّيتـــه(٣)

وهو أشدّ استسلاما له في قوله وقد استنفد الطرق في صرفه وعلاجه:

فـإن هـو لم يَحُرْ وأتى لـوقتٍ ... فـقـــلْ في رحـب دار واقـتراب
ولا تـعـــرضْ لـــه إلا بـخـير ... وإن عـــدّى على شرْخ الشبـــابَ
وخـــذْ للشيب أهبتَه وبـــادرْ ... وخـــلِّ عنـان رحلك للـذهـــابَ
فقـد جـدَّ الـرحيـلُ وأنت ممن ... يسيرُ على مقـدمـة الـرُكـابِ(٤)

ولا أدري إن كان من قبيل الاستسلام للواقع على نحو ما مرَّ أم من قبيل رؤية الجانب المشرق من الشيب قوله يمدحه:

مـا الـدرُّ منظـومـا بـأحسن من ... شيب يجلّل هـامـةَ الكـهـل
وكـأنـه فيـه النجـوم إذا ... جـدَّ المسير بهـا على مَهـلَ
لا تـبـكين على الشبـاب إذا ... يبكي الجهـولُ عليـه للجهـلَ
واشكـر لشيبك حسن صحبتـه ... فلقـد كساك جـلالـةَ الفضـلِ(٥)

---

(١) عيون الأخبار: ٤/٥٢.
(٢) بهجة المجالس: ٢/٢١٢.
(٣) السابق: ٢/٢١٣.
(٤) السابق: ٢/٢١٢، محاضرات الأدباء: ٢/٢٣٤.
(٥) أمالي المرتضى: ١/٦٠١.

وعلى العموم فقد أكثر الوراق من الحديث عن الشيب والشباب، ولعله ـ وقد عمّر طويلا كما رأينا ـ لزمه الشيب زمناً، واستنفد الطرق في علاجه، فكان ذلك من بواعث إكثاره الحديث عنه، وتلون أساليب القول فيه.

## الشعر الديني :

على الرغم من أن شعر الوراق قد اغترف من نبع الإسلام، وصدر عن قيمه الأصيلة، فمثل بذلك الشاعر المسلم المتلزم، إلا أن للرجل ـ بجانب هذا كله ـ شعراً دينياً خلص للحديث عن الجانب الوجداني من الإسلام. وقد احتل هذا الجانب من فنه حيزاً كبيراً. وبدا فيه الوراق شاعراً صادق الإيمان، متين الدين، حار العاطفة، ورعاً تقيا، يستحضر الله في كل ما يأتي وما يدع. إن الدين عنده هو القيمة الكبرى المهمة، إنه الصحة والعافية، فالصحيح من صحّ دينه، والسقيم من سقِم دينه:

والسقم في الأبدان ليس بضائرٍ  والسقمُ في الأديان شُر بلاء(١)

وفي سبيل تصحيح هذه القيمة تتردد في شعر الوراق نغمات الإيمان حارة مؤثرة، متمثلة في ثقة مطلقة بالله. ويرسم الوراق في سبيل التعبير عن هذه الثقة مفارقة دقيقة؛ فمن عجب أن يرضى الإنسان بكفالة عبد مثله، ولا يرضى بكفالة ربه الخالق، وهو على ثقة أن الله هو الوفي الذي لا يخلف:

أما عجبٌ أن يُكْفل الناسُ بعضُهم  ببعض فيرضى بالكفيل المُطالبُ
وقد كفل اللهُ الوفيُّ بعهدهِ  فلم يُرْضَ والإنسان فيه عجائبُ
عليمٌ بان الله موف بوعده  وفي قلبه شك على القلب دائب
أبى الجهلُ إلا أن يَضُرَّ بعلمه  فلم يُغنِ عنه علمه والتجاربُ(٢)

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٧/ ٨١.
(٢) العقد: ٣/ ٢٠٦.

ويكرر هذه المفارقة مرة أخرى في قوله :

أتطلب رزق اللـــه من عنـــدِ غيره ... وتصبـحُ من خـوف العـواقب آمنـاً
وترضى بصرافٍ وإنْ كـان مشركـاً ... ضمنيـاً، ولا تـرضى بـربك ضـامنـاً
كـأنك لم تقنـع بما في كتـابـه ... فـأصبحت مـدخـول اليقين مُبـاينـا(١)

وهذه الثقة المطلقة بالله تحمله على ألا يسترزق غيره؛ فالعبد لا يستصرخ بعبد :

يـا أيهـا الطـالبُ من مثلـهِ ... رزقـاً لـه جُرْت عن الحكمـةْ
لا تطلب الـرزق إلى طـالـب ... مـثلـك محتـاج إلى الـرَّحمةْ
وارغب إلى اللـه الـذي لم يـزلْ ... في يـده النعمـة والـنـقـمـةْ(٢)

وتحمله على التوكل، وأن يفوض إلى الله جميع الأمور :

ففـوضْ إلى اللـه كـلَّ الأمـورِ ... فليس يكـونُ سـوى مـا صَنـعْ(٣)

وأن يستغني به :

فاستغنِ باللـه عن دنيـا الملـوك كما ... استغنى الملوكُ بدنياهم عن الدين(٤)

والوراق شديد الحب لله، صوفي فيه، وهو إيجابي في هذا الحب، وقد عبر عن هذه الإيجابية في هذا القياس المنطقي البديع الذي رأيناه يستخدمه كثيراً؛ فالمحبّ ينبغي أن يؤدي فروض الحب، وهو طاعة المُحَبّ وعدم عصيانه، يقول:

تعصي الإلـه وأنت تظهـرِ حبَّه ... هـذا محالٌ في القيـاس بـديـعُ
لـو كـان حُبك صـادقـاً لأطعتـه ... إن المحبّ لمن يحبُّ مـطـيـعُ
في كـل يـومٍ يبتـديك بنعمـةٍ ... منـه وأنت لشكـر ذاك مُضيـعُ(٥)

---

(١) العقد: ٣/٢٠٦.
(٢) بهجة المجالس: ١٤٠.
(٣) السابق: ٢/٣٦٤.
(٤) أحسن ما سمعت: ١٧.
(٥) العقد الفريد: ٣/٢١٥، بهجة المجالس: ١/٣٩٥.

ومن مظاهر هذا الحب الشكر، وقد أكثر الوراق من ترداد نغمات الشكر لله تعالى، وعدّ بلوغ الشكر من باب اللطف الذي يستحق الله عليه الشكر. وقد عبر عن ذلك في هذه الصورة القياسية الرائعة التي تقدمها الأبيات الذائعة التالية:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... علي له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمرُ
إذا مُسَّ بالسرَّاء عم سرورها ... وإن مُسَّ بالضراء أعقبه الأجرُ
فما منهما إلا له فيه نعمةٌ ... تضيق بها الأوهام والبرُّ والبحرُ(١)

والشكر عند الوراق رمز الحب، وهو كذلك عنوان الوفاء، ولكن الجحود نقيض ذلك، والمعصية وجه من هذا الجحود، يقول:

أراني إذا ما ازددت مالاً وثروةً ... وخيراً إلى خير تزيَّدتُ في الشرِّ
فكيف بشكر الله إن كنتُ إنما ... أقومُ مقام الشكر لله بالكفر
بأي اعتذارٍ أم بأيةِ حُجةٍ ... يقولُ الذي يدري من الأمر لا أدري
إذا كان وجه العذر ليس ببيِّنٍ ... فإنّ اطراح العذر خيرٌ من العذرِ(٢)

والعبد من طبيعته الخطأ، ولكن خير الخطائين المنيبون التوابون، يقول الوراق:

قدِّم لنفسكِ توبة مرجُوَّة ... قبلَ الممات وقبلَ حبس الألسنِ
بادرْ بها عُلَق النفوس فإنها ... ذُخرٌ وغُنْمٌ للمنيبِ المحسنِ(٣)

وإن اخطأت فأتبع الحسنة السيئة تمحُها :

فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة ... فثنِّ بإحسانٍ وأنت حميدُ(٤)

---

(١) الفاضل: ٩٥، الشكر: ١٠٤.
(٢) زهر الآداب: ١/٩٩، بهجة المجالس: ٢/٤٨٩.
(٣) بهجة المجالس: ٢/٢٥٩.
(٤) الزهد الكبير: ٢٥٩، لطائف المعارف: ٨.

وعجل بفعل الخير، ولا تستهنْ بعمل مهما ضَـؤُل :

لقـد رأيتُ الصغير من عمـل الـ ... خير ثـوابـا عـجبت مـن كبَـرهْ
وقـد رأيت الحقير من عمـل ... الخَير جـزاءً أشفـقت مـن حَـذَرِهْ(١)

واجتنب طاعة الهوى فإنه مهلكة :

هـواك ـ ولا تُـكْذبْ ـ عليك أميُر ... وأنـت رهـينٌ بي يـديـه أسـيرُ
يسـومك عصيـانـاً وأنت تطيعُه ... وطـاعتـه عـارٌ عليك كثـير(٢)

وهكذا تتردد نغمات الإسلام صافية شفافة في شعر الوراق لتفصح عن روح إيمانية صوفية، ولتعكس يقيناً حاراً، ولتشعر بروعة الكلمة، وبعد تأثيرها، ونفوذها في أعماق النفس عندما تكون صادقة هادفة نبيلة..

---

(١) بهجة المجالس: ٢/٣٤٦.
(٢) الفاضل: ١٢٣.

# نظرية فنية

## شعر مقطّعات :

إن شعر الوراق الذي استطعنا أن نجمعه مقطعات قصيرة، وليس فيها قصائد طويلة، إلا قطعتين عدة كل واحدة أربعة عشر بيتاً، الأولى مطلعها:

ركبوا المراكب واغتدوْا  زُمُراً إلى باب الخليفهْ(١)

والثانية :

لا تطلُبَنْ أثراً بعيْن  فالشيب إحدى الميتتيْن(٢)

وهناك بضع قطع أخرى أبياتها ما بين ستة أبيات إلى ثمانية، وأما بقية شعره الذي وقع لنا منه مئتان وأربع وعشرون قطعة، فكله ما بين الواحد إلى الخمسة. إن الوراق إذن لا يطيل في شعره، إنه شاعر قصار، واذا كنا لا نستبعد أن يكون هذا الشعر غير المدون الذي وصل إلينا أكثره عن طريق الذاكرة قد سقط منه في أثناء هذه الرحلة الطويلة شيء أو أشياء؛ فإنه لا يغيب عنا ـ في الوقت نفسه ـ أن هذه ظاهرة عامة في شعر الزهد والحكمة، وهي ليست قاصرة على الوراق وحده.

إن من طبيعة هذا الشعر أنه مقطعات؛ فهو يُنشأ في موقف ما، للحث أو الحضّ، أو الترهيب، أو الترغيب، أو الوعظ، أو الإرشاد، أو ما شاكل ذلك من القضايا والأمور، فهو منصرف إلى جزيئة بعينها يتحدث عنها، مما لا يتطلب الإطالة أو يحمل عليها، ويطرق الشاعر فيه موضوعه مباشرة، زاهداً في تلك المقدمات التي تعرضها ضروب القصائد الأخرى، كالمديح والفخر والهجاء.. وإن قصد الشاعر الأول منه مخاطبة عامة الناس وجمهورهم الأعظم، ولعل قصار الشعر ومقطعاته أحظى عندهم، وأسير على ألسنتهم، ومنذ القديم قيل لابن

---

(١) جامع بيان العلم : ١/٢٠١ (ط دار الكتب العلمية).
(٢) العقد : ٢/٤٢ وقد نسبت كذلك إلى عمرو والوراق.

الزبعرى. «مالك تقصِّر أشعارك؟ فقال: لأن القصار أولجُ في المسامع، وأجولُ في المحافل(١).

## السهولة والبساطة :

ولقد كان الوراق ـ شأنه شأن شعراء الزهد ـ لا يتعمق هذا الشعر، أو يتلبث في إعداده، أو يتوقف عنده طويلا، وإنما هو خواطر سريعة، واندفاعات عجلى، تتناسب وطبيعتها وظرفها، لم يتح لها أن تأخذ حظها الكافي من التنقيح أو التثقيف، ولذلك اتسم شعر الوراق بالسهولة والبساطة، ولكن من غير ركة أو ابتذال، واتسم بالتقريرية والمباشرة، ولكن من غير فجاجة أو ضحالة.

ولا شك أن سهولة هذا الشعر، وقربه من النفس، وبعده عن التكلف، قد قربه من روح العامة، وأكسبه طوابع شعبية، سَهّلت حفظه، ويسَّرت تداوله، وهذا ما كان يحرص عليه شاعر الزهد، وهو سيرورة شعره بين الناس، وذيوعه بين الغالبية العظمى منهم.

وعلى أن هذه الطوابع الشعبية في شعر الوراق وأضرابه، كالسهولة والبساطة والليونة، إذا كانت قد قربته من عامة الناس فحظي عندهم، فإنها جعلته ـ في الوقت نفسه ـ لا يحظى عند الخاصة والعلماء، وقد فطن أبو العتاهية إلى هذه الخصائص الشعبية في شعر الزهد، فقال عنه: «ليس من مذاهب الملوك، ولا من مذاهب رواة الشعر، ولا طلاب الغريب، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء، وأصحاب الرياء والعامة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه»(٢).

لم يحظ شعر الزهد إذن عند رواة الشعر، وعشاق الغريب، وقد يفسر لنا هذا عدم اهتمامهم بجمع شعر الوراق وكثير من أمثاله أصحاب الزهد والحكمة، كما أن ذوق رواة الشعر وعلماء اللغة كان ـ بشكل عام ـ أكثر التصاقا

---

(١) إحكام صنعة الكلام : ٥٦.
(٢) الأغاني : ٤/ ٧٠.

بأغراض معينة، كالمديح والفخر والهجاء والوصف والغزل. كان الفرّاء يقول: «وليس الشاعر إلا من هجا فوضع، أو مدح فرفع، كالخطيئة والأعشى فإنهما يرفعان ويضعان»(١) وعندما كان ذو الرمة يسأل: مالي لا أعدّ في الفحول؟ كان الفرزدق يقول له: «لتجافيك عن المدح والهجاء، واقتصارك على الرسوم والديار»(٢).

ولقد كان الوراق شاعراً مطبوعاً، يتدفق في القول، لا يلقى في إنشائه عنتاً أو صعوبة، وهو يمتلك قريحة فياضة تسعفه على ما يريد، وقد عرف المتقدمون له شعراً كثيراً، اتسم ـ كما ذكرنا ـ بالبساطة والسهولة، وأنه ينساب بيسر، ويتدفق بتلقائية من دون تكلف أو تصنع.

## طوابع فكرية :

ولكن الوراق ـ على طبعه وعدم تكلفه ـ يحاول أحيانا أن يتفلسف، أو يستخدم في شعره ضروباً من الطوابع الفكرية المختلفة، وقد أشرنا إلى نماذج منها في أثناء الحديث السابق، وهي تبدو عنده في مظاهر متنوعة، كاستخدام الحجاج والقياس،وقد ضربنا ـ فيما تقدم ـ أمثلة على ذلك، أو في محاولة التعمق في الفكرة واستقصائها من جميع جوانبها، كقوله يرثي نشوى مظهراً تسليماً بقضاء الله تعالى، ومعدداً ضروب نعمه في جميع الأحوال، إن أخذ وإن أعطى:

عطيَّتُه إذا أعطى سرورٌ ... وإن أخذ الذي أعطى أثابا
فأي النعمتين أعم فضلاً ... وأحمد في عواقبها إيابا؟
أنعمته التي أهدت سروراً ... أم الأخرى التي أهدت ثواباً؟
بل الأخرى وإن نزلت بكره ... أحق بشكر من شكر احتسابا(٣)

---

(١) شرح شواهد المغني : ١/٣٢.
(٢) الموشح : ٢٧٣.
(٣) بهجة المجالس : ٢/٣٥٨.

ونراه يستقصي ويقسِّم في حديثه عن فكرة احتجاب الوالي عن الرعية، فيورد جميع الاحتمالات، حتى ليوشك أن يكون إحصاء حسابيا دقيقاً، فيقول:

إذا اعتصم الوالي بإغلاق بابهِ ... وردّ ذوي الحاجات دون حجابهِ
ظننت به إحدى ثلاث وربما ... نَزعت بظن واقع بصوابه
فقلت : به مسٌّ من العي ظاهرٌ ... ففي إذنه للناس إظهار ما به
فإن لم يكن عي اللسان فغالبٌ ... من البخل يحمي ماله عن طلابهِ
فإن لم يكن هذا ولا ذا فريبةٌ ... يُصِرّ عليها عند إغلاق بابهِ(١)

وقد تبدو هذه الطوابع الفكرية على شكل إثارة عقلية تعتمد على المنطق والتعليل، ولفت النظر إلى أمر عجيب، لما فيه من التناقض والتنافر، كقوله يتحدث عن المعصية :

أعارك ماله لتقوم فيه ... بطاعته وتقضي بعض حقّهْ
فلم تشكره نعمته ولكنْ ... قويتَ على معاصيه برزقهْ
تجاهره بها عوداً وبدءاً ... وتستخفي بها من شُر خلقه(٢)

وقد يُدخل الوراق أحيانا ـ من باب تدعيم هذه الجوانب الفكرية ـ بعض المعارف والثقافات. وقد فطن الحصري القيراوني إلى ذلك عندما قال: «كان كثيراً ما ينقل أخبار الماضين وحكم المتقدمين، فيحليّ بها نظامه، ويزين بها كلامه»(٣) كقوله مثلاً :

قد قلت لما قال لي قائلٌ ... قد صار بقراط إلى رَمسهِ
فاين ما دوّن من كتبهِ ... وجمعه الأحجار مَعْ جَسّهِ
لم يُغْنِه إذ حُم مقدارهُ ... ولم يسار العشر من فلسه
هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسه(٤)

---

(١) رسائل الجاحظ : ٢/٣٦.
(٢) الفاضل : ٩٦.
(٣) زهر الآداب : ١/٩٨.
(٤) بهجة المجالس : ١/٢٩٠.

وعلى أن هذه الطوابع الفكرية ـ وهي كثيرة في شعر الوراق ـ لم تذهب بمائية هذا الشعر، أو تورثه جفافاً عقلياً، أو تتغلب على الجانب الوجداني الحار فيه، بل أورثته شيئا من العمق حيناً، وساهمت حيناً آخر في جعله أكثر إقناعا وقدرة على مخاطبة العقل كما يخاطب العاطفة.

## الصورة :

لم يخلُ شعر الوراق ـ على بساطته وسهولته وميله في الأعم الأغلب إلى التقريرية والتعبير المباشر ـ من الصور الفنية، والتعبيرات المجازية، وهي صور غير قليلة في شعره، ولكنها صور بسيطة غير معقدة، وقد اتسم بعضها بالصدق، والدقة في التعبير عن الفكرة التي أراد الشاعر أن يقدّمها. انظر إليه يشبه الشيب بالناقة الكبيرة (الِجسر) ليدل على أنه طريق إلى الموت، ودرب يفضي في النهاية إليه، كما تفضي الناقة براكبها إلى غايته:

اغتنمْ غفلة المنيّة واعلمْ ... أنما الشيبُ للمنية جِسر(١)

وانظر إلى هذه الصورة المعبرة عن انتشار المشيب في الرأس، واختلاط بياض الشعر بسواده، وكيف صاغها في هذا التشبيه التمثيلي، فقال :

فاجاك من وفد المشيب نذيرُ ... والدهرُ من أخلاقه التغييرُ
فسواد رأسك في البياضِ كأنه ... ليلٌ تدب نجومه وتسيرُ(٢)

أو قوله في هذه الكناية المؤثرة :

وكنت أخي أيامَ عودُك يابسٌ ... فلما اكتسى واخضرَّ صرتَ مع الدهر(٣)

وقد تقع له صور طريفة مبتكرة، استوفت عناصر فنية متميزة. انظر إليه يتحدث عن شخص بخيل اسمه أبو عثمان، فيصور بخله تصويراً ساخراً، في

---

(١) الكامل : ٢/١٧٥.
(٢) أمالي القالي : ١/١٠٨.
(٣) محاضرات الأدباء : ٢/١٥.

هذا التشبيه البديع المبتكر، الذي اجتمعت فيه عناصر لوحة متكاملة، بدا فيها دجاج أبي عثمان البخيل هذا طويل العمر كالشمس والقمر، لأنه لا يذبح لأحد، وبدا فيها انتظارنا لأكل هذا الدجاج ـ إن رزقنا العمر، وتجنب ساحتنا الموت ـ انتظاراً سرمدياً مستمراً ما أورق الشجر، يقول الوراق:

دجاجُ أبي عثمان أبعدُ منظراً ... وأطولُ أعماراً من الشمس والقمرْ
فإن لم نمت حتى نفوز بأكلها ... حييتُ بإذن الله ما أورقَ الشجر(١)

وقد تقع له صور معنوية طريفة، كقوله مصوراً إخفاءه للشيب :

وأخفي الشيبَ جهدي وهو يبدو ... كما غطَّى على الريبِ المُريبُ(٢)

ويعتمد الوراق أحياناً على ثقافته الدينية، فيستمد من مخزونها عناصر بعض الصور التي يرسمها، فها هو مثلا يعبر عن فكرة أن الإنسان قد يضطر إلى مدح من لا خير فيه قياسا له بغيره ممن هو شر منه جداً، فيقع على هذه الصورة الطريفة المتكاملة، فيرى أن ذلك يشبه من أشرف على الهلاك، فاضطر إلى أكل الميتة عندما لم يجد بديلا، وهو يستمد من قوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه﴾. بجامع الاضطرار في كلّ من طرفي التشبيه، يقول:

ذَممتك أولاً حتى إذا ما ... بلوتُ سواك عاد اللومُ حمدا
ولم أحمدك من خير ولكنْ ... وجدتُ سواك شَّراً منك جدا
فعُدت إليك محتملاً خليلاً ... لأني لم أجدْ من ذاكِ بُدا
كمجهودٍ تحامى أكل ميتٍ ... فلما اضطر عاد إليه شَدَّا(٣)

ومن مخزونه الديني أيضاً تشبيهه أهلينا وأموالنا في الحياة الدنيا بالعواري التي لا بد أن تُستردّ، في قوله :

---

(١) البخلاء للبغدادي : ١٢٦.
(٢) ديوان المعاني : ٢/١٦٤.
(٣) بهجة المجالس : ١/٦٥٥.

وما أولادنا والأهلُ فيها ولا أموالنا إلا عَوار
وأنفسنا إلى أجلٍ قريبٍ سيأخذها المعيُر من المُعَار(١)

وهكذا لم يخل شعر الوراق من صور فنية طريفة، ترد فيه في الحين بعد الحين، وقد استطاع أن يوظفها في خدمة بعض الأفكار التي أراد التعبير عنها توظيفاً موفقاً. وهي في أغلبها صور بسيطة غير معقدة، ولكنها اتسمت بالصدق والتأثير..

## آراء القدماء في شعر الوراق

حظي شعر الوراق عند القدماء، وفطنوا إلى تميزه بهذا اللون من القول الذي عكف عليه، وأشادوا بشاعريته وفصاحته، وأشاروا إلى إكثاره من القول، وتدفقه فيه. وقد أثرت عنهم مجموعة أقوال تتصل بشعره.

* قال ابن المعتز (ت: ٢٩٦ هـ): «شعر محمود كثير، وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب، وليس يقصر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدوس وسابق البربري»(٢).

* وكان أبو سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ) كما ذكر ياقوت «كثيراً ما ينشد مقطّعات محمود الوراق في الشيب، ويبكي عليها»(٣).

* وقال عنه الثعالبي (٤٢٩ هـ): «محمود بن الحسن الوراق، شاعر مشهور، أكثر شعره في المواعظ والحكم»(٤).

---

(١) المنازل والديار : ٢/٨٤.
(٢) طبقات الشعراء : ٣٦٧.
(٣) معجم الأدباء : ٣/٩٤ (ط مرجليوت).
(٤) المنتحل : ٣٥٢.

* وأشار الحصري القيرواني (٤٥٣ هـ) إلى ثقافته فقال: «وكان كثيراً ما ينقل أخبار الماضين، وحكم المتقدمين، فيحلّي بها نظامه، ويزّين بها كلامه»(١).

* وقال عنه الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ): «أكثر القول في الزهد والأدب»(٢).

* وقرّظه البكريّ (٤٨٧ هـ) فقال: «شاعر كثير الشعر جيده، وعامته في الحكم والمواعظ والزهد»(٣).

* وقال عنه ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان (٦٥٤ هـ): «وكان شاعراً فصيحاً»(٤).

* وأشاد به وبشعره الذهبيّ (٧٤٨ هـ) فقال: «بغدادي، خيّر شاعر مجوّد، سائر النظم في المواعظ»(٥).

* وقال عنه الصَّفدي (٧٦٤ هـ): «قال الرشيد أو المأمون: لو وصفت الدنيا نفسها ما وصفت بأكثر من قول أبي نواس :

وما الناس .....

أما سمع بشيء من أقوال أبي العتاهية، وصالح بن عبدالقدوس، ومحمود الوراق ومن تعرض لذمها من الشعراء كالمتنبي»(٦).

---

(١) زهر الآداب : ١/٩٨.
(٢) تاريخ بغداد : ١٢/٨٩.
(٣) سمط اللآلي : ١/٣٢٨.
(٤) حوادث : ٢٢١ هـ.
(٥) سير اعلام النبلاء : ١١/٤٦١.
(٦) نصرة الثائر على المثل السائر : ١١٧.

# فهرست المصادر والمراجع


١ ـ الإبانة عن سرقات المتنبي: للعميدي (ت: ٤٣٣ هـ) تحقيق إبراهيم البساطي، دار المعارف، بمصر: ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١م.

٢ ـ أحسن ما سمعت من النظم والنثر: الثعالبي (٤٢٩ هـ) المطبعة المحمودية، مصر، ط ثانية.

٣ ـ إحكام صنعة الكلام : الكلاعي (أواسط القرن السادس) تحقيق د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

٤ ـ أخبار أبي تمام: الصولي (٣٣٥ هـ) تحقيق خليل عساكر، محمد عبده عزام، نظير الإسلام الهندي، المكتب التجاري، بيروت، من دون تاريخ.

٥ ـ أخبار الظراف والمتماجنين: ابن الجوزي (٥٩٧ هـ) دار الكتاب العربي، سورية، من دون تاريخ.

٦ ـ أدب الدنيا والدين: علي بن محمد الماوردي (٤٥٠ هـ) تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨، ط رابعة.

٧ ـ الإشراف في منازل الأشراف: ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) مخطوط، مصور عن دار الكتب المصرية، برقم ٨٧٧٠ أدب.

٨ ـ الأعلام: الزركلي، ط ثالثة، بيروت.

٩ ـ الأغاني: الأصبهاني (٣٥٦ هـ) مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، لبنان، بيروت.

١٠ ـ أمالي القالي (٣٥٦ هـ) دار الكتب المصرية، القاهرة: ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٦م.

١١ ـ أمالي المرتضى (٤٢٦ هـ) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، عيس البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م.

١٢ ـ الأنساب: السمعاني (٥٦٢ هـ) دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

١٣ ـ البخلاء: الخطيب البغدادي (٤٦٤ هـ) تحقيق أحمد مطلوب، خديجة الحديثي، أحمد ناجي القيسي، مطبعة العاني، بغداد.

١٥ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس: ابن عبدالبر القرطبي (٤٦٣ هـ) تحقيق محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢م.

١٦ ـ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (٤٦٤ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧ ـ تاريخ الخلفاء: السيوطي (٩١١ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية بمصر: ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣م.

١٨ ـ التمثيل والمحاضرة: الثعالبي (٤٢٩ هـ) تحقيق عبدالفتاح الحلو، عيسى البابي الحلبي: القاهرة: ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١م.

١٩ ـ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله: ابن عبدالبر القرطبي (٤٦٣ هـ) دار الفكر، بيروت، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت: ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٠ ـ الجمان في تشبيهات القرآن: ابن ناقيا (٤٨٥ هـ) تحقيق مصطفى الصاوي الجويني، منشأة المعارف، الإسكندرية: ١٩٧٨م.

٢١ ـ حسن الظن بالله: ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة.

٢٢ ـ الديارات: أبو الحسن الشابشتي (٣٨٨ هـ) تحقيق كوركيس عواد، مكتبة المثنى بغداد: ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م.

٢٣ ـ ديوان محمود الوراق: جمع وتحقيق عدنان راغب العبيدي، وزارة التربية والتعليم بغداد: ١٩٦٩م.

٢٤ ـ ديوان المعاني: أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) مكتبة القدسي، القاهرة: ١٣٥٢ هـ، تحقيق المستشرق كرنكو.

٢٥ ـ ذم الدنيا: ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة: ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٦ ـ الرسالة الموضحة: الحاتمي (٣٨٨ هـ) تحقيق د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت: ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م.

٢٧ ـ رسائل الجاحظ (٢٥٥ هـ) تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة: ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م.

٢٨ ـ رغبة الآمل: المرصفي، مطبعة النهضة، مصر: ١٣٤٧ هـ ـ ١٩٢٨م، ط أولى.
٢٩ ـ الزهد الكبير: البيهقي (٤٥٨ هـ) تحقيق تقي الدين الندوي، لجنة التراث، أبوظبي: ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١، ط أولى.
٣٠ ـ زهر الآداب: الحصري القيرواني (٤٥٣ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط ثانية.
٣١ ـ الزهرة: أبو بكر محمد بن أبي سليمان الأصبهاني (٢٩٧ هـ) تحقيق إبراهيم السامرائي، نوري القيسي، وزارة الثقافة، العراق: ١٩٧٥م.
٣٢ ـ سرقات المتنبي ومشكل معانيه: ابن بسام (٥٤٢ هـ) تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية: ١٩٧٠م.
٣٣ ـ سرور النفس بمدارك الحواس الخمس: أبو العباس التيفاشي (٦٥١ هـ) هذبه ابن منظور، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية، بيروت: ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.
٣٤ ـ سمط اللآلي: البكري (٤٨٧ هـ) تحقيق عبدالعزيز الميمني، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٣٥٤ ـ ١٩٣٦م.
٣٥ ـ سير أعلام النبلاء: الذهبي (٧٤٨ هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٩٨٢م ـ ١٩٨٣.
٣٦ ـ شرح شواهد المغني: عبدالقادر البغدادي (١٠٩٣ هـ) تحقيق عبدالعزيز رباح، أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون، دمشق.
٣٧ ـ شرح شواهد المغني: السيوطي (٩١١ هـ) منشورات دار الحياة، بيروت.
٣٨ ـ شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (٦٥٦ هـ) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م.
٣٩ ـ الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة دار العلم، بيروت.
٤٠ ـ الشكر لله عز وجل: ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) تحقيق ياسين السواس، دار ابن كثير، دمشق: ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م ط ثانية.
٤١ ـ طبقات الشعراء: ابن المعتز (٢٩٦ هـ) تحقيق عبدالستار فراج، دار المعارف، مصر: ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٨٧، ط ثانية.

٤٢ ـ العقد الفريد: ابن عبد ربه (٤٦٣ هـ) تحقيق احمد أمين، إبراهيم الإبياري، عبدالسلام هارون، القاهرة: ١٩٤٩م، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٤٣ ـ عيون الأخبار: ابن قتيبه (٢٧٦ هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٧٣م.

٤٤ ـ غرر الخصائص الواضحة: الوطواط (٧١٨ هـ) دار صعب، بيروت.

٤٥ ـ الفاضل: المبرد (٢٨٥ هـ) تحقيق عبدالعزيز الميمني، القاهرة، دار الكتب المصرية: ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦م.

٤٦ ـ فوات الوفيات: ابن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـ) تحقيق د. إحسان عباس.

٤٧ ـ الكامل: المبرد: (٢٨٥ هـ) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، السيد شحاته دار النهضة مصر.

٤٨ ـ الكشكول: العاملي (١٠٠٣ هـ) تحقيق طاهر الزاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة: ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.

٤٩ ـ لباب الألباب: اسامة بن منقذ (٥٨٤هـ) دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٥٠ ـ لطائف المعارف: ابن رجب الحنبلي (٧٩٥ هـ) دار الجيل، بيروت.

٥١ ـ المحاسن والأضداد: الجاحظ (٢٥٥ هـ) تحقيق فوزي عطوي. الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت: ١٩٦٩م.

٥٢ ـ المحاسن والمساوىء: إبراهيم بن محمد البيهقي (بعد ٣٢٠ هـ) دار صادر، بيروت: ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م.

٥٣ ـ محاضرات الأدباء: الراغب الأصبهاني (٥٦٥ هـ) بلا مكان ولا تاريخ.

٥٤ ـ المختار من شعر بشار: أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر.

٥٦ ـ مختصر تاريخ دمشق: ابن منظور (٧١١ هـ) تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الفكر ، دمشق.

٥٧ ـ مرآة الزمان: سبط بن الجوزي (٦٥٤ هـ) مخطوط مصور في مجمع اللغة العربية، بدمشق.

٥٨ ـ المستطرف: الأبشيهي (٨٥٠ هـ) دار إحياء التراث، بيروت.

٥٩ ـ المستطرف في اخبار الجواري: السيوطي (٩١١ هـ) تحقيق د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت: ١٩٧٦م.

٦٠ ـ معجم الأدباء: ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) طبعة مرجليوت، مصر: ١٩٢٧م.

٦١ ـ المنازل والديار: أسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥.

٦٢ ـ المنتحل: الثعالبي (٤٢٩ هـ) تحقيق أحمد أبي علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١م.

٦٣ ـ المنصف في نقد الشعر: ابن وكيع التنيسي (٣٩٣ هـ) تحقيق د. محمد رضوان الداية، دار قتيبه، دمشق: ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٦٤ ـ الموشى أو الظرف والظرفاء: الوشاء (٣٢٥ هـ) بيروت: ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م.

٦٥ ـ الموشح: المرزباني (٣٨٤ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر: القاهرة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥م.

٦٦ ـ نزهة الأبصار في محاسن الأشعار: شهاب الدين العنابي (٧٧٦ هـ) تحقيق السيد مصطفى السنوسي، عبداللطيف أحمد لطف الله، دار القلم، بيروت: ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦م.

٦٧ ـ نزهة النفوس والأبدان: الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي (٨٧٢ هـ). تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية: ١٩٧٣م

٦٨ ـ نصرة الثائر على المثل السائر: صلاح الدين الصفدي (٧٦٤ هـ) تحقيق د. محمد علي سلطاني، مجمع اللغة العربية، دمشق.

٦٩ ـ نهاية الأرب: النويري (٧٣٣ هـ) دار الكتب المصرية: ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤م.

٧٠ ـ وفيات الأعيان: ابن خلكان (٦٨١ هـ) تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت: ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م